إشكاليات ترميم الآثار الفنية والأوابد التاريخية المتضررة في أثناء الحرب من عام 2011. 2018في سياق إعادة الإعمار في سورية .تدمر نموذجًا

فؤاد طوبال*

الملخص

تناولت الدراسة ترميم الآثار النحتية في إطار الهم الوطني (إعادة الإعمار)، في هذه المرحلة الزمنية الصعبة من تاريخ سورية، بعد الحرب والدمار الذي طال المدن السورية الأثرية والتاريخية، والتراث السوري في المدن المختلفة، وبَيَّنَ أهميتها، ولاسيَّما الآثار التدمرية النادرة نموذجًا، وكذلك المتاحف، ويلفت إلى التنقيبات الأثرية غير الشرعية التي جرت في أماكن سورية عدة، كما ناقش نماذج فنية قبل الترميم وبعده، وآراء علمية حول هذه العمليات المعقدة، وكذلك حلَّل واقع المدن التاريخية وآثارها قبل الحرب وبعدها، والخصائص الأسلوبية والتراثية لبعض النماذج الفنية، وطرائق التعدُّيل والترميم في ضوئها، كما حضَّ البحث على دقة العمل؛ للحفاظ على هذه الخصائص، وتَوَخَّى الحفاظ على الهوية المحلية للتراث المعماري والفني، عند إجراء التعدُّيلات والتحديث، في سياق إعادة الإعمار، وتطرق البحث إلى مشكلة نهب الآثار وتهريبها خارج الحدود السورية، وتوثيق هذه الجرائم التي طالت أجزاء مهمة من التراث السوري، وأكَّدَ على أهمية تحييد الآثار في الصراعات، والعمل على حمايتها دوليًا.

*جامعة دمشق، كلية الفنون الجميلة.

The Problems of the Restoration of Artistic Ruins and Antiquities and Historical Monuments Damaged during the war 2011.2018 in the context of Reconstruction in Syria- "Palmyra as an Example"

Abstract

Prof. Fouad Tobal[**]

The study deals with the restoration of the sculptural monuments in the framework of the national concern of reconstruction during that hard time of the Syrian history, after the war that demolished the Syrian archaeological and historical cities and the Syrian heritage in various cities. The study reflects the importance of such ruins, especially the awe-inspiring wonders and museums of Palmyra and as an example. It also refers to the illegal archaeological excavations that took place in several Syrian sites. In addition, it discusses artistic antiquities and pieces before and after restoration with scientific opinions about these complex processes, and an analysis of the reality and the ruins of the historical cities before and after war. The study also focuses on the stylistic and heritage characteristics of some artistic antiquities and restoration and modification methods. The study also underlines work accuracy to maintain those characteristics and the local identity of architectural and artistic heritage during restoration and modifications in the context of reconstruction. The research discusses the looting and smuggling of antiquities outside the Syrian borders and documents these crimes that damaged important parts of the Syrian heritage. The research also emphasizes the importance of internationally protecting such cultural property in conflicts.

[**] Fine Arts Colledge, Damascus University.

المقدمة:

تعدُّ الأرض السورية مهدًا لحضارات كثيرة متعاقبة على امتداد العصور التاريخية تمتد حتى العصر الحجري الحديث، وقد منحها موقعها الجغرافي أهمية كبيرة، جعلها مسرحا للتصادم بين الإمبراطوريات الكبيرة منذ الألف الثالث ق.م، كما جعل منها قدمها التاريخي مهدًا للفن، وقد احتضنت أرض سورية عبر هذه الأزمنة الطويلة الأوابد الأثرية الراسخة لحضارات تعاقبت على أراضيها ومدائنها، كما امتلأ باطنها بالكنوز الفنية والأسرار التاريخية على سويات وطبقات متعدُّدة، منها ما اكتشف ومنها ما لم يكتشف حتى يومنا هذا، إذ كانت البعثات الأثرية الوطنية والأجنبية مستمرة بالبحث والتنقيب في مئات المواقع، وكان البحث الأثري دومًا ينتهي باللقى الأثرية المهمة، التي تدل بدورها على حقائق جديدة تحتَّم المزيد من التنقيب والبحث والقراءة.

وقد استجلبت آثار سورية وسحر أوابدها الرحالة والمستشرقين والمؤرخين وجامعي الآثار، ولاسيَّما الأوروبيين منهم منذ القرن السابع والثامن عشر، أمَّا البعثات العلمية فيعود عمرها إلى نحو مئة وخمسين عامًا مضت.

وفي الوقت نفسه لم ينقطع نهب الآثار السورية وتهريبها؛ لأهميتها الفنية والتاريخية وقيمتها المادية. كما أن الظروف المناخية والزلازل والحروب كانت قد أدت إلى تهديم كثير من أوابدها وآثارها المهمة بنسب متفاوتة.

ومع أن بعضها تأذى بسبب الحروب والغزو والنهب في بعض المراحل التاريخية، إلاّ أنه لم يسبق أن تعرضت الآثار السورية لمثل ما حدث في سني الحرب القائمة على سورية في المدة الواقعة بين عام2010 و2017، وما من شك أن تهديم حضارتها وأوابدها، ونهب أهم آثارها التي صُنِّفَ كثير منها ضمن لائحة التراث العالمي، كان كما يتضح من ضمن أهداف هذه الحرب الواسعة.

مشكلة البحث:

تكمن المشكلة اليوم بعد بوادر إنهاء الحرب في كيفية ترميم هذه الآثار والأوابد والمدن المتضررة، وما يتعلق بذلك من المسائل والصعوبات، والمتطلبات التي يمكن تلخيصها بما يأتي:

- العمل الفني المطلوب.
- منهج العمل، أشكاله، أولوياته، وشروط نجاحه.
- كيف يمكن الحفاظ على الآثار دون تغيير في بيئتها ونسيجها المعماري.

- الخبرات والمهارات والإمكانيات المطلوبة لإعادة الإعمار؟
- هل يمكن استعادة الآثار المنهوبة؟
- كيف يمكن إعادة ما تهدم من مدن دون المساس بهويتها التاريخية والمحلية والتراثية؟

فرضيات البحث:

افترض الباحث أن إعادة الإعمار تحتاج إلى وضع خطط محكمة، وأنَّ ثمة صعوبات وعوائق تحتاج إلى تذليل وأمثلة واستشارات علمية وحسابات دقيقة في التفاصيل، وخبرات كبيرة، وأن يكون عملًا شفافًا متأنيًا يعتمد على الأطر والخبرات الوطنية بالدرجة الأولى، مع الاستعانة بالدول الصديقة من النواحي التقنية والتمويل، وربما بمشاركة المنظمات الدولية وإسهامها.

كما افترض حدوث أخطاء وتداخلات في عمليات ترميم الآثار الفنية، وبعض الخلل في المحافظة على الهوية المعمارية في استعادة إنشاء الأسواق والأماكن القديمة في حال إهمال هذا الجانب، أو وضع هدف سرعة الإنجاز بدلًا من دقته.

إن إدارة عمليات إعادة الإعمار بجوانبه المختلفة، والنجاح بها يؤكد الانتصار على الأزمة، وعلى من أسهم فيها إسهامًا مباشرًا أو غير مباشر.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تشخيص مختصر لواقع الآثار الفنية السورية من خلال أمثلة مهمة، وعرض وجهة النظر العلمية في ترميمها والوصول إلى الشكل الأمثل، والإشارة إلى وجهات نظر قد تكون غائبة، أو غير مدرجة في الأولويات.

منهج البحث:

اتَّبع البحث المنهج التاريخي، وهو الأسلوب الوثائقي لجمع الحقائق والمعلومات من خلال دراسة الوقائع والآثار، والأحداث والظواهر، والمواقف التي مضى عليها وقت طويل أو قصير، كما ارتبط بظواهر حاضرة.

أهداف البحث:

هدف البحث إلى توضيح العلاقة الدقيقة بين إعادة الإعمار بشكل عام، وجانب صيانة الآثار الفنية وترميمها تلك الأماكن التي تضم جوانب فنية أو تراثية جزئيًا أو كليًا من عمارات وأسواق أو صروح ذات طابع فني أو تراثي وحمايتها، بالاعتماد على الفهم الدقيق للتشابك الأسلوبي، والإطار التاريخي والثقافي، والمحيط الجغرافي، والخامات

الأصلية والتقانات والعناصر، ومحاولة تكوين صورة لتقويم العمل تقويمًا صحيحًا، ومن ذلك لفت النظر إلى أهمية الحفاظ على الهوية الخاصة للمدن والأسواق والآثار وترشيد العمل بالاستشارات التخصصية الدقيقة، وكذلك مقارنة الواقع القديم بالواقع الحالي، وتجنب إلحاق الضرر بالأثر في مراحل ترميمه أو صيانته، وتتلخص الأهداف في الجوانب الآتية:

– تقديم صورة عامة لواقع المدن والآثار والمناطق المتضررة التي تحتاج إلى ترميم وأولوياتها، والتعريف بأهميتها وقيمتها من الناحية الفنية والتاريخية.
– توثيق الجرائم والتعدُّيات التي طرأت على التراث الأثري السوري [ما أمكن].
– تشخيص الخبرات العلمية المطلوبة.
– تقديم رؤية علمية منهجية واضحة لتجنب التداخل بين التطوير العمراني والتراث، والبحث عن حلول صحيحة للحفاظ على الهوية الأسلوبية للآثار والمدن والمنشآت.
– تقديم أمثلة محددة من الفن التدمري، وتحليلها في الترميم وإعادة الإعمار.

واقع الآثار والمدن السورية قبل الحرب (حتى عام 2011):

كانت المدائن والآثار السورية تستجلب السياحة التاريخية والدينية، والبعثات العلمية، خاصة في العقدين الأخيرين قبل الحرب، كما شهدت الساحة الثقافية السورية وعيًا متزايدًا في أهمية الآثار والمدن السورية القديمة وأسواقها الشعبية بتقاليدها وتراثها، وما تحتضنه من عمارات وقصور وقلاع وأبراج ومساجد وكاتدرائيات وكنائس وأديرة وأضرحة وخانات وشرفات و(بيمارستانات) وحمامات وزخارف فنية وغيرها من الأماكن التي تعود إلى مراحل تاريخية متفاوتة. وكانت الجهات الرسمية قد استجابت لنداءات الهيئات الثقافية التي تضم الفنانين والمعماريين والباحثين وغيرهم من النخب الثقافية، التي دعت إلى الحفاظ على معالم هذه المدن وهويتها وحمايتها من التعدُّيات.

لكن التعدُّيات حصلت من أصحاب بعض العقارات الخاصة التي نفذها أفراد غير مدركين لقيمتها الجمالية والفنية، أو ممن خضعوا لإغراءات مادية لتحويلها إلى منشآت تجارية، أو مبانٍ طابقية، وإجراء تعدُّيلات معمارية أو إزالة كلية، وعدم الاكتراث بقيمتها التاريخية والسياحية، وغير ذلك.

كما أدرك أصحاب القرار أهمية المدن القديمة عامةً ولاسَّيما مدينتي حلب ودمشق، وضرورة حمايتهما من التعدُّيات، ممَّا أدى إلى إصدار تشريعات وأحكام بهذا الخصوص توقفت بعدها التعدُّيات إلى حد كبير.

وفضلًا عن ذلك كلّه، كان من اللافت إقامة فعاليات ثقافية مهمة في مناسبتين مهمتين: الأولى الاحتفالية بمدينة حلب كعاصمة للثقافة الإسلامية سنة 2006، والثانية الاحتفالية بمدينة دمشق بوصفها عاصمة للثقافة العربية سنة 2008.

وفي كلتا المناسبتين أقيمت المهرجانات والحفلات، والفعاليات الثقافية والعروض والمحاضرات، وقدمت البحوث المتنوعة المتخصصة، وطبعت الكتب والمنشورات في تفاصيل آثار هاتين العاصمتين التاريخيتين، وتفاصيل أخرى عن الفنون السورية في مختلف العصور.

ففي احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية أقيمت الندوات العلمية الدولية، عن آثار المدينة وفنونها وعمارتها شارك فيها 26 باحثًا من دول عربية وأجنبية، ومنهم (د. خالد عزب و د. صالح لمعي و يوسف زيدان (مصر)، د. علي نجم عيسى و د. م فارس شكري حميد (العراق) و د. م يحيى الزعبي . (الأردن) و د. مبارك لمين (المغرب) و د. محمود رمضان(قطر) و تيري غراندان (فرنسا) فضلًا عن الباحثين السوريين.

وبلغ عدد الندوات سبعًا وعشرين ندوة، وتنوعت الموضوعات بين قضايا التطوير العمراني للمدن الإسلامية، وحوارات في المجال العلمي والفلسفي للعمارة الإسلامية، والتراث المعماري لهذه المدن، والعوامل المؤثرة في عمرانها (الاجتماعية، والثقافية، والبيئية، والاقتصادية وغيرها...)، والتحولات التي طرأت عليها، والتداخل العمراني الحديث في الوسط التاريخي وآثاره في طبيعة المدن الإسلامية، وصولًا إلى تقويم تجارب الحفاظ على التراث العمراني لهذه المدن. هذه البحوث كانت قد وثقت في كتاب جمعه وقدم له الباحث محمد قجة.[1]

وفي احتفالية دمشق عام 2008 أجريت ندوات مهمة متنوعة مماثلة لباحثين متخصصين، وقدمت وزارة الثقافة . المديرية العامة للآثار والمتاحف مطبوعات (كتيبات توثيقية) وبحوثًا ومحاضرات فيها إضاءات إضافية عن الآثار السورية في عصور (الحجري الحديث، والبرونز، والكلاسيكية، والعصر الإسلامي وغيرها)، للتعريف بأهمية الآثار السورية وتوثيقها.

[1]- قجة، محمد: وقائع أبحاث الندوة العلمية الدولية فلسفة العمارة الإسلامية "حلب نموذجًا"، مديرية الكتب والمطبوعات، حلب، 2007.

كما أصدرت مجلات جامعة دمشق المحكمة عددًا خاصًا ضمَ بحوثًا مهمة في إطار الاحتفالية بما في ذلك أهميتها التاريخية، وآثارها وفنونها، وإبراز تراكيبها العمرانية[2].

هذه البحوث تشير إلى أهمية هاتين العاصمتين اللتين حققتا شروطًا محددة من بين الدول العربية والإسلامية؛ للفوز بالتسمية (حلب كعاصمة للثقافة الإسلامية، ودمشق كعاصمة للثقافة العربية)، وتسهم في تعزز الدراية بالطرز المعمارية، والمعلومات التاريخية، والصياغات التشكيلية والوظيفية، وتخطيط المدن، ومحددات أخرى بين العلوم والفنون، والحرف اليدوية والصناعات التقليدية في مدينة دمشق كنموذج للمدن العربية القديمة، وتقديم أسماء باحثين وفنانين ومهندسين ومؤرخين قادرين على تأدية دور استشاري في عمليات إعادة ما تأذى في جانب التراث الفني والمعماري، فضلًا عن الجوانب المختلفة الإنشائية والهندسية والخدمية بأشكالها كلّها.

وكانت المؤتمرات الدولية منذ ستينيات القرن الماضي قد أكدت الحفاظ على التراث المعماري والفني للمدن التاريخية، كما أكد مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد في روما عام 1963، وقد شجع المؤتمر على السياحة إليها بوصفها " تدعم التفاهم بين الشعوب والاهتمام بالتراث الحضاري، والتعرف إلى المواقع الأثرية في أنحاء العالم كلّه، لتلبية حاجات روحية وثقافية عميقة في نفس الإنسان. .. وهي وسيلة فعالة للاتصال الفكري بين الشعوب، وتبادل الثقافات والعادات والتقاليد"[3]

لكن من المؤلم أنه منذ عام 2011 بدأت سورية تشهد أحداثًا غريبةً متسارعةً تهدف إلى تفكيك بنية الدولة السورية وضرب استقرارها، وإشاعة الفوضى فيها، وطمس تاريخها، وتغيير مساراتها السياسية، بدأت تشيع الفوضى وتخريب المؤسسات مرورًا بتحطيم مدنها التاريخية وأوابدها وآثارها، ونهب ما أمكن من تراثها وثرواتها، وضرب بنيتها الثقافية والاجتماعية.

وهكذا تعرضت المدن السورية بفعل هذه الهجمة المباغتة التي شارك فيها عشرات الدول ومئات العصابات للتدمير والفوضى، ووقعت بعض المدن القديمة، والمدن

[2]- دمشق عاصمة الثقافة العربية: رواد فنون العصور الحجرية الحديثة، دمشق، 2008.

[3]- شكري حميد، فارس: وقائع الندوة العلمية الدولية، حلب نموذجًا، ص: 258.

التاريخية والأثرية بكاملها تحت سيطرة مجموعات وجيوش متسربة من دول مجاورة وبتغطية من دول كبرى سخَّرت إمكاناتها التقنية واللوجستية كلّها، والرصد الفضائي، بما في ذلك الأقمار الصناعية التي تبين لاحقًا أنها كانت تستكشف وترصد المواقع الأثرية المهمة التي لم يكن بعضها مكتشفًا، أو حفريات قيد التنقيب، أو مواقع تحتوي على كنوز ثمينة من الذهب والتماثيل النادرة، التي وجّهت مجموعات معينة محددة المهام ؛ بعضها للسرقة والنهب والتهريب خارج حدود الجمهورية العربية السورية، وأخرى لتحطيم ما لا يمكن نقله منها.

كما سُرِقَت الثروات السورية المهمة من مناطق مختلفة خرجت عن سيطرة الدولة، ولاسيَّما المناطق الشرقية والشمالية التي تحتوي على آبار النفط والغاز وصوامع الحبوب والحقول الزراعية الواسعة وغيرها من الأراضي التي تنتج الصادرات الاستراتيجية المهمة، وهُرِّبَت وبيعتْ بأسعار مخفضة لدول مجاورة، مما أضاف إلى هذه الحرب جانب استهداف الاقتصاد السوري، والعملة المحلية، تلك الأعمال التي تعدُّ جرائم دولية، موصوفة بالتنسيق والتسهيلات الكاملة من دول مجاورة معروفة، ولاسيَّما بعد السيطرة على معابر حدودية، وقواعد عسكرية مشبوهة موجودة في بعض أطراف البادية السورية، بذريعة محاربة الإرهاب المعلن، ودعمه بالخفاء.

وثبت تورط دولة عربية وهي دولة قطر بتمويل سرقة الرقم الطينية المهمة من آثار (إيبلا)، التي تعدُّ من الوثائق التاريخية التي لها أهمية بالغة، يحتاج توضيحها إلى بحوث مفصلة، وهي تعدُّ أهم أرشيف تاريخي سوري يثبت كثيرًا من الحقائق التي ترد على تزوير الأحداث التاريخية المهمة التي وُظفت سياسيًا في الوقت الراهن، بالتزامن مع حفر الأنفاق، ونهب محتويات متحف إدلب بالكامل[4]. وجزء من متحف معرة النعمان، ولم تسلم متاحف أخرى كمتحف حمص، ومتحف تدمر ومتحف حماه وغيرها.

هذه الهجمة التي رافقها التهويل والإرهاب والقتل الذي كان من أقسى نتائجه أن الإنسان السوري الذي كان ينعم بالاستقرار والأمان في مدنه وقراه، قد أصبح قسم منه يعاني من التهجير، وفقدان السكن ومصادر الرزق، فمعظم الأماكن التي تهدمت في المدن، كان فيها الورشات والمصانع والحرف والبيوت، ليست المؤسسات الحكومية فقط،

[4] - حمود، محمود: المدير العام للآثار والمتاحف، لقاء خاص، قناة الميادين، 2017.

بل يعود قسم كبير منها لأسر خاصة في المجتمع السوري، فضلًا عن أهميتها في الاقتصاد الوطني، والإنتاج المتنوع الذي يصدر إلى الخارج، كما تعرض المجتمع السوري إلى الدعاية الموجهة الخطرة، التي كانت تهول وتبث الأخبار الكاذبة، والرسائل المتناقضة التي تهدف إلى إفقاده التوازن، وفهم ما يجري حوله، وهذه أحدث أساليب الحرب النفسية التي كانت الدول المعادية قد مهدت لها بحرفية إعلامية مسبقًا، وزرعت لهذا الهدف محطات فضائية متطورة، وإعلاميين ومراسلين مدربين ومزودين بغرف عمليات وأجهزة اتصال مع الأقمار الصناعية.

وهكذا فإن جانب الحرب الإعلامية بالوسائط المتعدُّدة (كالصورة والصورة المصنعة، والمتحركة، والفيديو، والفيلم، والملصق، والرسائل الصوتية وغيرها) كانت حاضرة في هذه الحرب، ولم تترك وسيلة من وسائل الاستهداف إلا واستخدمتها، بما فيها ما يدعى (بالطابور الخامس)؛ لإثارة الفرقة بين مكونات الشعب السوري تمهيدا لتقسيم البلد الواحد إلى (كانتونات) متناحرة.

وقد كان من أبرز النتائج السلبية لتدمير البنى التحتية العامة والخاصة، هجرة اللأطر العلمية، والخبرات الحرفية والصناعية، واستقطابها من قبل بعض الدول الغربية التي فتحت باب الهجرة ومنحت الإقامة والجنسية لأعداد ضخمة من المهاجرين السوريين، فضلًا عن رؤوس الأموال المهاجرة إلى خارج الوطن.

مما لا يمكن تجاهله في إعادة الإعمار، الأيدي التي تمتلك المهارات النادرة، التي يصعب تعويضها كلها، فضلًا عن الخبرات الأكاديمية والعلمية والفنية، التي يمكن أن تؤدي دورًا مهمًا في الترميم والإعمار.

وفي مقدمة الأمثلة عن المدن الأثرية التاريخية السورية التي تعرضت للتخريب هي مدينة تدمر، التي تعرضت للاجتياح الكامل مرتين من قبل جيوش المسلحين المدفوعين عبر البادية السورية، وتم تدمير أهم أوابدها الأثرية ومتحفها، وتعرضت محتوياته من التماثيل النحتية النادرة للتحطيم والتشويه ومنها تمثال(أسد اللات)، كما نهب كثير من المحتويات المهمة، ولوحق مدير المتحف الباحث الأثري التدمري العالم بأسرار مدينة تدمر وآثارها وتنقياتها (خالد الأسعد)، واغْتُيل ومُثِّلَ بجسده، كما هدمت منشآت تدمر التاريخية ذات الرمزية العالية، كقوس النصر وامتداده من الشارع المعمد والتيترابيلون، ونهبت المدافن، كما دُمِّرَت في الهجمة اللاحقة بعض المعابد، ومنها معبد (بل) الذي

دمر تدميرًا كاملًا، والذي كان يعدُّ من أكبر الأوابد الأثرية وأهمها في الشرق القديم، كما دُمِّرَ المسرح الروماني تدميرًا جزئيًا، أمَّا المدافن البرجية المدهشة التي تقع غرب المدينة، فقد تعرض أكثر من ثمانية أبراج منها للتدمير الكامل،[5] وهي مدافن طابقية فريدة من نوعها ونماذجها، التي امتازت بغناها بالمنحوتات والزخارف النحتية، كما أجريت التنقيبات غير الشرعية لنهب الآثار وتهريبها خارج الحدود في تدمر و(دورا أوروبوس)، التي كانت حاضرة ثقافية تدمرية متقدمة شرقًا على الفرات، والتي تضم تراثًا مهمًا للديانات القديمة كلّها، ولوحات فسيفسائية نادرة، تمت سرقتها . حسب تصريح المدير العام للآثار والمتاحف . منذ احتلالها و استقدام تجار أتراك وعمال مع كامل التجهيزات والآليات، وتعرضت للنهب والدمار بشكل مأساوي.

وفي ندوة كانت قد أقامتها المديرية العامة للآثار مدة الأزمة عن حماية الآثار السورية دعي إليها الباحث، عُرِضَ فيديو(صوِّرَ عن طريق الأقمار الصناعية) قدمه أحد المتطوعين الأجانب، يظهر حفرة كبيرة حديثة العهد نفذت بالجرافات حول مدينة أفاميا الأثرية، ولم تعرف الآثار التي نهبت منها بعد.

ويعتقد أن نهب الآثار من المناطق الخاضعة لسيطرة المجموعات الإرهابية قائم حتى الآن، ففي مدينة بصرى الشام التي تحوي المدرج الروماني، والأعمدة البازلتية الباسقة، والأسواق والعمارات والبوابات، والبيوت والمنحوتات النادرة، التي تعود إلى المرحلة الرومانية، روى سكان محليون مشاهداتهم المتكررة لناقلات ضخمة تنقل الحاويات المغلقة من المدينة باتجاه الحدود الجنوبية المفتوحة خارج سيطرة الدولة السورية، وما من شك أنها كانت تحمل أهم آثارها وأثمنها، ومن الجدير بالذكر أن سهول حوران وجبالها تضم آثار حقب كثيرة كغيرها من مناطق سورية، ولاسيَّما آثار حضارة الأنباط والرومان، وغيرها من حضارات كان قد وثقها الباحث د. علي أبوعساف (الآثار في جبل حوران [6]، وفضلًا عن ذلك فإن المدن المأهولة التي دخلها الإرهاب، قد دمرت بيوتها وشوارعها وأريافها، وإذا نظرنا إلى مدينة حلب التي سبق ذكر احتفاليتها عام 2006 كعاصمة للثقافة الإسلامية، نجد ما لحق بها من خراب ودمار، قد طال أسواقها

[5]- حمود، محمود: المرجع السابق.

[6]- أبو عساف، علي: الآثار في جبل حوران، ج2، مطابع ألف باء الأديب، 2009.

القديمة التي حرقت ونهبت وتهدمت، وكذلك أضرحتها القديمة، ومواقعها الأثرية كقلعة سمعان وغيرها.

كما تعرضت مصانعها وصناعاتها للنهب والتخريب، وسرقت إلى خارج الحدود وقد تضررت الشوارع والأسواق القديمة، والعمارات الخاصة والعامة، ولحق الضرر الكبير بممتلكات السكان، من بيوت وورشات صناعية وفنية بما لا يقدر بثمن، ولم تسلم بقية المدن والقرى والمناطق الأخرى من الأضرار بالاعتداءات المختلفة.

هذه الظروف المركبة، تبيّن أنه يمكن مقارنتها بحرب عالمية من أكثر من وجهة مقارنة، إن كان من ناحية مشاركة عشرات الدول فيها من دول غربية وإقليمية، ومن ناحية اتساع النطاق الجغرافي للصراعات، ونشوء التحالفات الإقليمية والدولية، أو إقامة المؤتمرات الدولية، واللجوء إلى منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن غير مرة، والمدة الزمنية التي تجاوزت السبع سنوات، في حين انتهت الحرب العالمية الثانية بعد خمس سنوات.

كانت المدن السورية بعد هذه الحرب حالها كحال المدن الألمانية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، مع الأخذ بالفارق الرئيس أنها خرجت مهزومة ومقسمة.

وربما من المفيد تذكر الظروف المتشابهة وتجربة الحلول. فقد خسرت ألمانيا 7,5 مليون مواطن، وانخفض سكان بعض المدن من 750 ألفًا إلى 32 ألفًا، كما انخفض الإنتاج الزراعي إلى الثلث، وتآكلت المصانع، كما استولت الولايات المتحدة على التكنولوجيا الألمانية وحصل نقص حاد في البضائع، وانخفض سعر صرف العملة المحلية، فضلًا عن الديون والتعويضات المفروضة على الدولة الألمانية، وقد وقع كثير من مثل هذه الأحداث في سورية على امتداد سنوات الأزمة.

وتعطي المقارنة دوافع محفزة لإمكانية إعادة الإعمار والنهوض، مثلما نهضت ألمانيا سريعًا بعد الحرب بوجود خطط صحيحة بدأت في الجانب الاقتصادي إذ أمكن مضاعفة الإنتاج الصناعي، ومستوى دخل الفرد خلال أربع سنوات، كما أدت السرعة في رفع الأنقاض بمساعدة المواطنين إلى رفع الروح المعنوية لدى الألمان، إذ أعطيت الفرصة للسكان ليكون لهم دور كبير في إعادة الإعمار.

وفي هذا السياق نجد أن الألمان قاوموا خطط التحديث في عدد من المدن للحفاظ على هويتها المحلية، وحافظوا على المدن القديمة كبرلين وفرانكفورت وغيرهما، وقد نجحوا على سبيل المثال في ثني الحكومة عن شق شارع كبير وسط برلين وأجبروها

على تحويله إلى منطقة واسعة للمشاة مع أنَّ المدينة بحاجة إلى مساحات مكتبية واسعة كونها مركزًا للبنوك، إلا أن سكانها طالبوا بالإعمار الجديد على حافات المدن، وليس في المدينة القديمة حتى التي كانت لها رمزية نازية، كما حيد الألمان الآثار وكل ما له علاقة بالثقافة من الصراع، وهذا عكس ما حصل في المدن والآثار السورية بشكل موجه من دول خارجية معروفة.

وبالعودة إلى موضوع الترميم قبل الحديث عن ترميم المنحوتات قدَّم الباحث في البداية من الأمثلة المحلية للترميمات المعمارية التي حدثت في دمشق التي تناولها أحد البحوث المرافقة لاحتفالية دمشق كعاصمة للثقافة العربية، وهو ما أجري من ترميمات لخان أسعد باشا. مع الفارق في ظروف الترميم وشكل الدمار. إلا أنه يجب التقيد بأصول الترميم الدقيقة" فمع أنه أعيد تلوين الرسومات الموجودة في عام 1995 وبناء خدمات صحية، وتمديدات كهربائية وخطوات جيدة جدًا ولاسيَّما مشروع تحويله إلى متحف، نجد أن التغيير قد طال أجزاء كثيرة خلال الستين سنة الأخيرة، ونذكر كأمثلة مما عُدل: بناء الجدار المطل على فناء الخدمات، وإغلاق نوافذ الغرف الشمالية، وإغلاق باب الغرفة يمين المدخل الرئيس، وهدم جدارين وإغلاق نهاية الممر...، وتغيير اتجاه امتداد الجدار الجنوبي، وتغيير النوافذ في الجناح الشرقي، ورفع مستوى الجناح الموجود شمالًا، وإعادة بناء الغرفة الشمالية (بالآجر)، ونزع ما تبقى من أحجار قديمة في أرضية الباحة/ في الثمانينيات/ من قبل وزارة السياحة، وإغلاق الباب الذي يربط الممر العلوي الغربي وتحويلة إلى كتبية، فضلًا عن تبليط جزئي للأرضيات بغير نوعية الأحجار القديمة..."[7] ومع الاعتراف بإيجابية هذا الترميم وهدفه الثقافي الممتاز، إلا أن السؤال الذي يفرض نفسه؛ إذا كانت مثل هذه التغييرات سوف تحدث كل عقد أو عقدين على مبنى أثري ما، فستكون النتيجة أن هويته التاريخية مهددة بالزوال نسبيًا مع الزمن، مع الإشارة إلى أن كثيرًا من الأوابد القديمة في سورية، ولاسيَّما المعابد، قد بنيت فوق مبانٍ أقدم، واستخدمت حجارتها نفسها، وعدلت حسب طرز جديدة ألحقت بها، ومن أبرزها الجامع الأموي، الذي كان غير مرة معبدًا وثنيًا، ثم كنيسة، ثم مسجدًا إسلاميًا، وهنا نرى الخليط في العناصر، من الحجارة الضخمة والأعمدة الكورنثية والمآذن والزخارف الإسلامية

[7]- طوبال، فؤاد: دمشق في سجل الحضارة والفن، العدد الخاص، ص: 172.

وغيرها..، وهذا كلُّه جعل هويته المعمارية تتألف من هذا الخليط من العناصر، مع أنَّ هويته الإسلامية هي الغالبة والثابتة.

هذه الأمثلة تقود للاستنتاج، بأنه يجب عدم الاندفاع في إعادة الإعمار نحو هدف سرعة الإنجاز والتحديث ـ وخصوصًا الأحياء والمباني التاريخية ـ من جهة أصحاب القرار، الذي سيقابله الاندفاع لهدف ربحي لدى الشركات والجهات المنفذة، وربما كان هذا قابلًا للحدوث، ولاسيَّما الأماكن التي فيها تداخل بين الأماكن التراثية والأماكن التي يمكن تحديثها، بما فيها الشوارع والأسواق الشعبية التجارية والخانات وغيرها، مع الأخذ بالحسبان أن الهوية التاريخية للمدن السورية القديمة، هي التي تميزها عن المدن في العالم، وهي التي تبهر السائح، سواء للغايات التاريخية أو العلمية أو الدينية، أو المتعة الجمالية.

وتعدُّ تدمر أكثر المدن التاريخية السورية أهميةً، وأكثرها تضررًا بفعل الحرب؛ لهذا تناول البحث الحالي مدينة تدمر الأثرية نموذجًا.

على أن "أطلال تدمر تمتد الآن على مساحة أكثر من عشرة كيلومترات مربعة، تمثل ما تبقى من المدينة في أكثر عهودها ازدهارًا، وهو يمتد بين القرنين الأول والثالث بعد الميلاد، وفي القرن الثاني الميلادي وصلت إلى قمة مجدها الاقتصادي، وفي القرن الثالث الميلادي كانت قمة مجدها العسكري والسياسي، عندما كانت عاصمة مظفرة لمملكة تمتد من قلب الأناضول لصعيد مصر"[8].

لم تكن هذه المدينة في بداية تكونها تمتلك مخططًا تنظيميًا محددًا، وإنما توضعت حول نبع أفقا ومعبد بل القديم مركز العبادة الرئيس للسكان المحليين؛ والقسم الثاني من المدينة يتوضع في ما يسمى " الساحة البيضوية، وقد انطلق من هذا المكان التطور اللاحق للمدينة. معبد بل ومعسكر ديوقلسيان تفرعت من جهتيه الشوارع الباقية، ونرى الشارع المعمد الذي يمر من المركز ليوصل قسمي المدينة المتقابلين؛ كانت الكتلة الرئيسة لمنشآت تدمر (بالميرا) القديمة يحيطها سور شيد في زمن زنوبيا، عزز أيام يوستنيان، ينتهي الشارع المعمد بأعمدة عرضانية، تصل بزاوية مباشرة إلى معسكر ديوقلسيان والمعبد الجنازي، وعلى التلال في الجنوب الغربي وجد امتداد النيكروبول (مدينة الموتى)، أو مدينة المدافن (البرجية والأرضية وغيرها من أشكال المدافن).

[8]- البني، عدنان: تدمر والتدمريون، وزارة الثقافة، 1978.

وفي عام 131 م كان قد بني معبد جديد للإله بعلشمين، وبُدِئَ ببناء صفوف الأعمدة ذات (الكونسولات) على طول الشارع الرئيس المؤلف من القسم العابر عرض 11 مترًا مؤطرًا بالأعمدة ارتفاعها نحو 10 أمتار، ورصيفين مسقوفين بعرض 6 أمتار، ومن جهة الأرصفة توضعت دكات (مقاعد) للحرفيين.

ويذكر أن التطورات والتعدُّيلات التي طرأت على المدينة (في العصر الروماني) كانت قد حدثت مع تحسن الوضع الاقتصادي والثقافي للمدينة في القرن الثاني والثالث الميلاديين واكتسابها أهمية اجتماعية كبيرة، إذ" شقت شوارع مستقيمة جديدة، وأقيمت الأعمدة، والأقواس العالية، والأسواق التجارية، وكان هذا تلبية لحاجات التجارة" [9]

وكان من أهم المنشآت التدمرية الأثرية داخل السور وخارجها؛ معبد بل، والبيوت مع البازيليك، وأعمدة النصر، والقوس، وحمامات ديوقلسيان، والمسرح، والآغورا، والسينات (مجلس الشيوخ) والتيترابيلون، ومعبد بعلشمين، ومعبد اللات، والبازيليك المسيحي، والمدافن البرجية، والمدافن الأرضية، ومدافن المغاور، والمسرح، ومعبد نبو، ومعبد بعل شمين. ومن أهم المنشآت الجديدة كان متحف تدمر الغني بمحتوياته من التماثيل والمنحوتات المتنوعة، وعلى المدخل الرئيس كان يقف تمثال (أسد اللات) أجمل المنحوتات الحجرية وأندرها، الذي يجسد واجهة أسد ضخم شامخ الرأس، فاغر الفم، عيناه الواسعتان ترمقان أفواج المتعبدين، يستند على يديه القائمتين ويمسك بينهما (وعلًا) يبدو مطمئنًا أليفًا لم يمسه أذى، و"على يده اليسرى كتب باللغة الآرامية (إن الآلهة اللات تبارك من لا يسفك الدم في المعبد) تجسيدًا لمعاني القوة المرعبة عندما تكون مسخرة لسلام الإنسانية ورخائها". [10]

نفذت هذه المنحوتة من الحجر الكلسي الطري بأسلوب نحتي غاية في التبسيط والتحوير، وقد وجد في معبد اللات عام،1977 وهو من منجزات القرن الأول قبل الميلاد ولا يوجد له مثيل في العالم، ويمكن أن يكون مثالًا مهمًا لموضوع البحث في ترميم المنحوتات التي مرت بأطوار عدَّة. الشكل (1)

[9]- طوبال، فؤاد: الملامح المحلية في فن النحت التدمري، أطروحة دكتوراه، ص: 45- 46.

[10]- الأسعد، خالد: الروائع الأثرية المكتشفة حديثا، المديرية العامة للآثار، ص: 7.

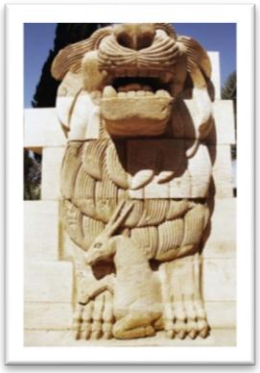

الشكل (1) أسد اللات الترميم بعد اكتشافه

الشكل (2) الصحيح، المقترح للترميم من قبل الباحث (وفق تحليل مبدأ التناظر المتبع)

الشكل (3) يبين تمثال أسد اللات بعد التحطيم

ويبيّن الشكل (2) الصورة الصحيحة للترميم التي اقترحها الباحث، كما يبيّن الأخطاء التي حصلت في الترميم (الأول) الذي أجري للتمثال، فالقطع المضافة إليه تبدو خارجة عن الشكل، كما أن نهايات خصل الشعر غير محززة وخارجة عن جسم الأسد، كما أنها غير مقوسة، وغير قائمة على تحليل التناظر في جانبي الشكل رغم الجهود المبذولة.

ويبيّن الشكل (3) التحطيم المؤلم لهذا الأثر الفريد، الذي ليس له مثيل في العالم، كما يبين الشكل(4) معبد بل التدمري أعظم أوابد الشرق القديم، وتبيَن الصورة اليسرى حال المعبد في أيار عام 2009، وحاله في آذار 2016.

الشكل (4)

كما تبين الصورة الثالثة في الشكل(4) ماكيتًا (مصغرًا) مفترضًا لمعبد بل المبني على دراسة مستفيضة، ولايزال موجودًا في متحف تدمر، والذي كان قد نفذ بإشراف الباحثين الفرنسيين سيريغ وآمي وويل (Syrig H, Amy R, will E)، فضلًا غن كتاب مخصَصٍ للمعبد وتفاصيله، وهذا ما يسهل عملية الترميم، بمساعدة جهود دولية.

ولكن تبدو الصعوبة الكبيرة، ليست في ترميم البناء وإعادته إلى أقرب صورة له في عام 2009 فحسب، بل في تفاصيله من زخارف نادرة كسقف المحراب في الهيكل المركزي ورولييفات (منحوتات جدارية نافرة) ولاسيما المنحوتة النادرة ذات الشهرة الكبيرة، والأهمية البالغة، التي تجسد مشهد الطواف في معبد بل الذي يعطي فكرة واضحة عن النحت الجداري المحلي، وعن طقس ديني مهم، وقد كان ملقى في أرض المعبد، فضلًا عن تفاصيل وعناصر معمارية مهمة كثيرة لم يعرف مصيرها للأسف.

ومن الواضح أن حجم التدمير الذي طال المعبد يتطلب جهدًا كبيرًا لترميمه، كما يتطلب تعاون المنظمات الثقافية الدولية، فضلًا عن توظيف التكنولوجيا المتطورة، ورصد الإمكانيات الكبيرة، والخبرات المميزة.

ومن المنحوتات المهمة النادرة التي كانت في إحدى قاعات تدمر، كان تمثال أثينا . اللات، وهو يمثل الربة أثينا، الموحدة بالربة العربية اللات ترتدي ثوب البيبلوس الشفاف، الذي يتدلى فوق جسدها، ويتثنى بخطوط شاقولية لينة، ويدها مرفوعة لتمسك بها رمحا (بحسب وصف د. خالد الأسعد) الشكل (5)[11]

تمثال أثينا اللات متحف تدمر حال التمثال بعد تحطيمه (مرحلة الترميم)

الشكل (5)

كان هذا التمثال يقف شامخًا في متحف تدمر، ومن اللافت أنه يختلف عن بقية التماثيل التدمرية من حيث إنه من خامة المرمر غير المحلية، فضلًا عن كونه نسخة إغريقية مستجلبة، ولا يحمل التقاليد الفنية المحلية، وهنا يضيف معادلات أخرى إلى الترميم..

كما تبيّن المجموعة من التماثيل التدمرية الجميلة الأخرى من خامة الحجر الكلسي المحلي، التي كانت معروضة في متحف تدمر الحالة المؤلمة التي آلت إليها من التحطيم والإتلاف الشكل(6).

إن ترميم هذه التماثيل وغيرها، يحتاج إلى العودة لألبومات ومؤلفات وكتب مصورة بدقة للمقارنة، ولا نعرف مدى إمكانية الحصول عليها، أو تلفها مع ما لحق من تخريب، وغياب الشخصيات التي تمتلك ملفات خاصة مثل الباحث الراحل عفيف البهنسي وخالد

[11]– الأسعد، خالد: الروائع الأثرية المكتشفة حديثًا، المديرية العامة للآثار، ص: 2

الأسعد، ومروان مسلماني، وغيرهم، مع التنويه إلى كثيرين من الباحثين الأحياء الذين لم يستشارو..، ومن المهم ذكر بعض البحوث المصورة المهمة عن الآثار السورية، ومن أمثلتها: الآثار السورية، وهي مجموعة بحوث قدم لها د.ع. البهنسي، الذي وثق جولة لمراحل حضارة سورية وآثارها منذ مراحل ما قبل التاريخ حتى العصر الإسلامي، مرورًا بالعصر الروماني والبيزنطي[12].

ومن البحوث المهمة كتاب الباحث مالكولم كولج (Malcolm A. R. Colledge)[13] الذي خصَّصه للفن التدمري.

إن توخي الدقة، يفترض التوسع في الاستشارات والشفافية، وعدم الاقتصار على أشخاص محددين، فآثارنا جديرة بصب الطاقات كلّها للوصول إلى أفضل النتائج، وأخيرًا، فإنه من المؤلم أن الآثار السورية لاتزال تهدم، وتحطم حتى تاريخ إعداد هذا البحث.

الشكل (6) تماثيل تدمرية نصفية محطمة الرؤوس

ويبيّن الشكل (6) نماذجَ من التماثيل التدمرية، التي تبدو محطمة الرؤوس، وتحتاج إلى العودة إلى ألبومات المتحف للمقارنة، وخبرات نحاتين وآثاريين مختصين بالفن التدمري، وعمل طويل ودقيق، وتستحق ذلك كلّه لأهميتها، وتحتاج إلى إعادة تشكيل للأماكن المتضررة.

[12]- البهنسي، عفيف: الآثار السورية، دار فورفرتس للطباعة، فيينا، 1985.

[13]- Malcolm A. R: Colledge the Art of Palmyra, London.

ولا تقل بوابات تدمر بجمال عمارتها و رمزيتها عن جمال معبد بل ورمزيته، وبقية المعابد والآثار المحطمة، فهي محفورة في ذاكرة كل من زار تدمر أو تصفح كتبها، وقد يكون ترميمها أقل صعوبة؛ ويبيّن الشكل (7) حال البوابة التي تدعى (قوس النصر) في نهاية الشارع الطويل قبل الحرب، وحالها بعد الاعتداء، هذه التحفة المعمارية التي رسم جمالها الرحالة منذ القرن الثامن عشر.

الشكل (7)

الخاتمة والنتائج:

- يبيّن البحث أبرز المدائن والآثار السورية من الناحية الفنية، المنتشرة على الأرض السورية، وأمثلة من مدينة تدمر والخصائص الأسلوبية لآثارها المتضررة.
- يقدم مقارنة أمثلة من الآثار المتضررة، قبل التخريب وبعده، ويقدم وجهات النظر العلمية من خلال المقارنة.
- يشير إلى أمثلة خاصة عن عمليات حديثة لنهب الآثار السورية، وأهم الآثار والأماكن المنهوبة، في سبيل حصول الجهات الرسمية لتوثيق هذه الجرائم، والعمل على استعادتها في المحافل الدولية.
- يقدم دراسة أمثلة عن الترميم، ويحلل مدى الدقة والمنهجية والنجاح فيها.
- يحض على ضرورة توخي الحفاظ على الهوية المحلية في إعادة الإعمار وإجراء التعدُّيلات، مع التحديث في فضاءات محددة.
- يؤكد أهمية تحييد الآثار في الصراعات، والعمل على حمايتها دوليًا.
- كما يقدم وجهات نظر، وآراء مختلفة ذات صلة بإعادة الإعمار عمومًا.

المراجع العربية:

1- أبو عساف، علي: الآثار في جبل حوران، ج2، مطابع ألف باء الأديب، دمشق، 2009.
2- الأسعد، خالد: الروائع الأثرية المكتشفة حديثًا، المديرية العامة للآثار، دمشق.
3- البني، عدنان: تدمر والتدمريون، وزارة الثقافة، دمشق، 1978.
4- البهنسي، عفيف: الآثار السورية، دار فورفرتس للطباعة، فيينا، 1985.
5- حميد، فارس شكري: وقائع الندوة العلمية الدولية، حلب نموذجًا، مديرية الكتب والمطبوعات، حلب، 2007.
6- طوبال، فؤاد: الملامح المحلية في فن النحت التدمري، 1987.
7- طوبال، فؤاد: دمشق في سجل الحضارة والفن، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، العدد الخاص دمشق عاصمة الثقافة العربية، 2008.
8- قجة، محمد: وقائع بحوث الندوة العلمية الدولية فلسفة العمارة الإسلامية "حلب نموذجًا"، مديرية الكتب والمطبوعات، حلب، 2007.
9- المديرية العامة للآثار والمتاحف في القطر العربي السوري: الروائع الأثرية المكتشفة حديثًا، 1984.
10- دمشق عاصمة الثقافة العربية: رواد فنون العصور الحجرية الحديثة، دمشق، 2008

المراجع الأجنبية:

1- Malcolm A. R: Colledge the Art of Palmyra, London1976.
2- Syrig. H; Amy. R: will E. Le Temple de Bell a Palmyr, Paris, Geuthner, 1975.